



مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

سوسيولوجيا الآخر جدلية الهوية والاختلاف في البناء الاجتماعي والثقافي

حسام الدين فياض
باحث سوري

20
25

www.mominoun.com

◆ بحث محكم
◆ قسم الدين وقضايا المجتمع
◆ 2025-12-29

سوسيولوجيا الآخر جدلية الهوية والاختلاف
في البناء الاجتماعي والثقافي

“ الآخر ليس مجرد انعكاس للذات، بل هو المرآة التي تكشف حدود فهمنا للهوية، ومفتاح إدراكنا للعدالة المجتمعية، والتعايش، والاعتراف المتبادل في المجتمع.”

“ يعد مفهوم “ الآخر » من المفاهيم المركزية في علم الاجتماع والفكر الإنساني المعاصر؛ إذ يشكل مدخلاً لفهم آليات التمايز الاجتماعي وبناء الهوية. فالآخر ليس مجرد شخص أو جماعة مختلفة، بل هو نتاج لعمليات اجتماعية وثقافية ورمزية تحدد من نحن في مقابل من لسنا نحن.” (الكاتب)

- الملخص:

تركز هذه الدراسة على فهم الآخر من منظور سوسيولوجي، مع إبراز جدلية الهوية والاختلاف وآليات بناء صور الآخر في المجتمع. اعتمدت الدراسة المنهجية التحليلية النقدية، مستندة إلى الفلسفة الكلاسيكية (هيجل، سارتر، ليفيناس) والسوسيولوجيا المعاصرة (جوفمان، بورديو، سعيد)، مع التركيز على دور الخطاب الإعلامي والسياسي والثقافي في إنتاج الصور النمطية.

خلصت الدراسة إلى أن الآخر ليس كائناً خارجياً فحسب، بل عنصر أساسي في تشكل الهوية والوعي الذاتي، وأن الاعتراف المتبادل يمثل إطاراً فعالاً لبناء العدالة الاجتماعية وتعزيز التعددية الثقافية. بالمقابل، يمكن للخطاب الإعلامي والسياسي أن يعيد إنتاج الإقصاء إذا لم يُراعِ الاعتراف بالآخر.

وفي النهاية أوصت الدراسة بضرورة تعزيز الاعتراف المتبادل في السياسات الثقافية والاجتماعية، وإعادة النظر في الصور النمطية للآخر في الإعلام والتعليم، وتوسيع الدراسات حول الآخر في سياق العولمة لضمان فهم متكامل للهوية والاختلاف في المجتمعات المعاصرة.

- المقدمة:

تعد مسألة الآخر من أكثر القضايا جوهرية وإشكالية في الدراسات الإنسانية والاجتماعية؛ إذ لا تقتصر أهميتها على كونها كياناً منفصلاً عن الذات، بل تتصل مباشرة بفهم كيفية تشكّل الهوية الإنسانية في علاقتها بالاختلاف والتنوع. فالآخر، في بعده النظري، ليس مجرد كيان موضوعي للبحث، بل هو المرأة التي تعكس للذات حدودها وإمكاناتها، وشرط لإدراك الإنسان لأبعاده الأخلاقية والثقافية والاجتماعية. لقد أشار الفلاسفة الكلاسيكيون مثل هيجل وسارتر وليفيغناس إلى أن الآخر يلعب دوراً محورياً في تكوين الوعي الذاتي، فالاعتراف بالآخر، أو الصراع من أجل الاعتراف، هو ما يمنح الذات معناها ويحدد حدود وجودها الأخلاقي والفكري.

ومع تطور علم الاجتماع، أخذ مفهوم الآخر أبعاداً تحليلية تتجاوز الفلسفة إلى فهم العلاقات الاجتماعية والثقافية المبنية على القوة، والتميز، والرموز الثقافية، والوصم الاجتماعي. فقد أظهر إرفنج جوفمان كيف يساهم الوصم الاجتماعي في تشكيل صور الآخر داخل الجماعات، بينما حلل بيير بورديو دور التمييز ورأس المال الثقافي في إنتاج الفوارق بين الذات والآخر. أما إدوارد سعيد، فقد ركز على تحليل الخطاب الغربي للشرق، موضحاً لنا كيف تصاغ صور الآخر في سياق الهيمنة الثقافية والسياسية. هذه التحليلات مجتمعة تؤكد أن الآخر ليس مجرد كائن خارجي، بل جزء من عمليات إنتاج الهويات والسلطة في المجتمع.

وفي العصر الحديث، ومع انفتاح المجتمعات على العولمة، أصبح الآخر حاضراً ليس فقط في الفضاء الرمزي، بل في الحياة اليومية للمجتمعات من خلال الهجرة، واللجوء، والتعددية الثقافية. هذا التحول يعيد صياغة العلاقات بين الهوية والاختلاف، ويستدعي إدراكاً جديداً للعلاقات الاجتماعية القائمة على الاعتراف والتفاعل، بدلاً من الإقصاء والصراع؛ إذ لم يعد الآخر كياناً خارجياً، بل عنصراً فاعلاً في بناء الذات والجماعة، وفي تكوين الهويات الفردية والجماعية ضمن فضاءات متعددة الثقافات.

من هذا المنطلق، تهدف هذه الدراسة إلى تقديم رؤية شاملة لسوسيولوجيا الآخر، تبدأ بالجذور الفلسفية، مروراً بالتحليل السوسيولوجي للآليات التي تنتج صور الآخر، وصولاً إلى دراسة جدلية الهوية والاختلاف، وانعكاسات العولمة على العلاقات بين الذات والآخر. كما أنه من خلال هذا النهج، يمكن استخلاص فهم متكامل للآخر ليس كتهديد للذات، بل كفرصة لإعادة تشكيل الهوية، وبناء الاعتراف المتبادل، وتعزيز التنوع الاجتماعي والثقافي. إن هذه الدراسة تعكس إدراكاً أن الآخر عنصر محوري لفهم الذات الإنسانية في سياق متغير، وأن معالجة العلاقة بين الذات والآخر هي مفتاح لفهم ديناميات العدالة، الثقافة، والسياسة في المجتمعات المعاصرة.

أولاً- الجذور الفلسفية والسوسيولوجية لمفهوم الآخر:

يعد مفهوم “الآخر» من أكثر المفاهيم الفلسفية والسوسيولوجية ثراءً في الفكر الإنساني الحديث والمعاصر؛ إذ يشكل مدخلاً نظرياً لفهم طبيعة الهوية والعلاقة مع الغير ضمن أطر فلسفية، وثقافية، واجتماعية متشابكة. وقد تنقل المفهوم بين حقلين أساسيين: الفلسفة التي أرست أسسه الميتافيزيقية والأنطولوجية، وعلم الاجتماع الذي أعاد تأويله في ضوء البنى الرمزية والسلطوية داخل المجتمع.

في الفلسفة، تناول هيجل فكرة الآخر في إطار الصراع الجدلي من أجل الاعتراف كما ورد في فينومينولوجيا الروح. فالوعي بالذات، عنده، لا يتحقق إلا من خلال علاقة متوترة مع وعي آخر يسعى هو أيضاً إلى الاعتراف. هذه العلاقة الجدلية بين “السيد والعبد” تخلق عملية وعي متبادلة تظهر أن الحرية لا تبني في عزلة، بل في تفاعل وصراع مع الآخر الذي يحدها ويكشفها في آن واحد.

أما سارتر، فقد أعاد صياغة المسألة في أفق وجودي، معتبراً أن الآخر هو المرأة التي تُعرّف الذات بذاتها. وفي كتابه “الوجود والعدم” يقدم مفهوم “النظرة”، حيث يشعر الإنسان في مواجهة نظرة الآخر بأنه يتحول إلى موضوع منظور، يفقد جزءاً من حريته، ويتعين داخل وعي غريب يراه من الخارج. ومن هنا تولد مأساة الذات التي تسعى إلى الحرية بينما تقيدتها موضوعية الآخر.

بينما قدم إيمانويل ليفيناس انعطافة جذرية؛ إذ حول اللقاء مع الآخر من علاقة معرفية إلى علاقة أخلاقية. ففي الكلية واللائهائي، يرى ليفيناس أن وجه الآخر يمثل النداء الأخلاقي الأول، وأن الاستجابة له هي ما يجعل الإنسان إنساناً. فالآخر هنا ليس مجرد انعكاس للذات أو شرط لوعيها، بل أساس لمسؤوليتها الأخلاقية، ومن ثم تغدو الأخلاق “الفلسفة الأولى” التي تسبق الوجود والمعرفة.

ومع تطور علم الاجتماع، انتقل مفهوم “الآخر” من بعده الفلسفي إلى دراسة علاقات القوة والتميز الاجتماعي والتمثل الثقافي. لقد صار يفهم بوصفه بنية اجتماعية تنتجها الخطابات والمؤسسات التي تعرف من هو “الطبيعي” ومن هو “المنحرف” أو “المختلف”. ففي هذا الإطار قدم إرفنج جوفمان إسهاماً محورياً في دراسته الكلاسيكية الوصم: ملاحظات حول تدبير الهوية المشوهة، حيث حلل كيف يبني “الآخر” من خلال آليات الوصم الاجتماعي التي تعرف الأفراد المختلفين أو المهمشين كذوات منقوصة، وكيف تؤثر هذه التصنيفات في تفاعلهم اليومي داخل البنية الاجتماعية. فالمجتمع، بحسبه، ينتج “الآخر” عبر تصنيفاته الرمزية والإجرائية التي تُعيد إنتاج علاقات الهيمنة.

أما بيير بورديو، فقد نقل دراسة “الآخر” إلى مستوى الحقول الاجتماعية والرأسمال الثقافي. ففي كتابه “التميز: نقد اجتماعي للحكم” عام 1979، حلل كيف تُنتج الفئات الاجتماعية اختلافاتها ورموزها عبر ذوقها واستهلاكها وثقافتها، وكيف تعمل هذه الرموز على ترسيخ التراتب الطبقي وإعادة إنتاجه. فالآخر هنا

ليس فقط من يقصى أو يهمل، بل من يُعرّف داخل حقل القوة بوصفه أدنى أو مختلفاً ثقافياً. وبذلك، يغدو “الاختلاف” أداة اجتماعية للتمييز والفرز الطبقي.

في حين قدم إدوارد سعيد قراءة سوسيولوجية وثقافية عميقة لمفهوم “الآخر” في سياق العلاقة بين الشرق والغرب. ففي كتابه “الاستشراق”، بين سعيد كيف شكل الخطاب الغربي صورة “الشرق” كآخر غريب، متخلف، وساكن، في مقابل “الذات” الغربية المتفوقة والعاقلة. فالمعرفة الاستشراقية، كما يؤكد سعيد، لم تكن محايدة بل كانت مرتبطة بعلاقات السلطة والإمبريالية التي أسست لهيمنة الغرب الثقافية والمعرفية على الشرق. ومن هنا، يلتقي التحليل السوسيولوجي للآخر مع النقد الثقافي لما يسميه فوكو “أنظمة الحقيقة” التي تنتج وتشرعن الاختلاف والتفوق.

إن هذا التطور من هيجل إلى غوفمان وبورديو وسعيد يكشف عن انتقال المفهوم من حقل الوعي الذاتي إلى حقل البنية الاجتماعية، ومن التأمل الفلسفي إلى تحليل القوة والمعنى والتمثيل. فالآخر في الفلسفة كان شرطاً لتكون الذات، أما في علم الاجتماع والثقافة، فقد أصبح أداة لتفسير أنماط التمايز والهيمنة داخل المجتمع. وهكذا يغدو مفهوم “الآخر” محوراً جامعاً بين الذاتي والموضوعي، بين الوعي الفردي والنسق الاجتماعي، وبين الفعل الأخلاقي وبنية السلطة.

خلاصة القول، إن الانتقال من التصورات الفلسفية إلى التحليل السوسيولوجي يظهر كيف يتداخل مفهوم “الآخر” بين مستويات متعددة: في الفلسفة يؤسس الآخر كشرط لوعي الذات والأخلاق، بينما في علم الاجتماع يدرس كأداة لإنتاج الاختلاف، ولتفكيك علاقات القوة والتمييز الاجتماعي والثقافي. وهكذا، يصبح الآخر محوراً جامعاً لفهم الذات والهوية في بعده النظري والعملي، متكاملاً بين الحرية الفردية، والمسؤولية الأخلاقية، والنسق الاجتماعي الثقافي، مما يتيح للباحث تحليل كيف تشكل العلاقات الاجتماعية والرمزية الهوية الفردية والجماعية في آن واحد.

ثانياً- سوسيولوجيا الآخر (المفهوم، الموضوع، والأهمية):

تعدّ “سوسيولوجيا الآخر” أحد الاتجاهات الحديثة في الفكر السوسيولوجي التي نشأت استجابةً للتحوّلات المعرفية الكبرى التي أعادت النظر في علاقة الذات بالآخر داخل المجتمع والثقافة. لقد تجاوزت المقاربة السوسيولوجية الحديثة الفهم الفلسفي التقليدي للآخر بوصفه مُعطى وجودياً أو جديلاً بين الذات والوعي، لتضعه في سياقه البنيوي والاجتماعي والثقافي، بوصفه نتاجاً لعلاقات القوة والمعرفة والتمثيل. بهذا المعنى، لا يفهم الآخر ككيان معزول أو مغاير فحسب، بل كنتاج لتفاعلات تاريخية ومؤسسية تحدد من يكون في موقع “الاختلاف” ومن يحتل موقع “المرجعية”.

1- تعريف سوسيولوجيا الآخر: تُعرف سوسيولوجيا الآخر بأنه المجال السوسيولوجي الذي يبحث في كيفية تشكل مفهوم الآخر داخل البنى الاجتماعية والثقافية، وفي الآليات التي تنتج بها المجتمعات صوراً ومثلاث للفئات المختلفة، بما يرسخ أنماط التمييز والاستبعاد أو يعيد إنتاجها.

يركز هذا التخصص على أن الآخر ليس وجوداً سابقاً على الفعل الاجتماعي، بل هو بناء اجتماعي تنتجه الخطابات، والمؤسسات، وممارسات الحياة اليومية. ومن هذا المنطلق، تهتم سوسيولوجيا الآخر بتحليل ديناميات التفاعل بين الذات والآخر من خلال ما يُعرف بـ “سياسات الاختلاف” التي تشغل ضمن منظومة السلطة والرموز والمعرفة.

ومن الناحية النظرية، تستند سوسيولوجيا الآخر إلى الإرث الفلسفي لهيغل الذي رأى في الآخر ضرورةً لوعي الذات بذاتها عبر جدلية الاعتراف، وإلى تأملات سارتر في “الوجود والعدم” حين اعتبر أن نظرة الآخر هي ما يجعل الذات موضوعاً لنفسها، كما تستلهم رؤية ليفيناس الذي جعل من اللقاء بالآخر أصلاً للأخلاق والمعنى الإنساني. غير أن المقاربة السوسيولوجية نقلت هذا النقاش من الحقل الميتافيزيقي إلى الواقع الاجتماعي، عبر دراسة كيف تترجم هذه الجدليات في العلاقات اليومية، في التمييز الطبقي، وفي التمثلات الثقافية التي تصوغ الهويات الفردية والجماعية.

بناءً على ما تقدم، يمكننا تعريف سوسيولوجيا الآخر “بأنها فرع من فروع علم الاجتماع يهتم بدراسة الكيفية التي يُبنى بها مفهوم “الآخر” داخل البنى الاجتماعية والثقافية، وكيف تنتج المجتمعات تصورات ومثلاث عن المختلف عنها في الهوية أو الثقافة أو الطبقة أو الدين أو الجنس”. وتسعى هذه المقاربة إلى تحليل العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين الذات والآخر، وما يرافقها من أنماط الإقصاء أو الاعتراف أو التهميش أو الهيمنة، بوصفها آليات اجتماعية وثقافية تُسهم في تشكيل الهويات الفردية والجماعية.

وهكذا تنطلق سوسيولوجيا الآخر من فرضية أن الهوية لا تتحدد إلا في سياق العلاقة بالغير؛ أي إن “الأنا” تُعرف ذاتها من خلال التمايز عن “الآخر”، بما يجعل دراسة الآخر مدخلاً أساسياً لفهم ديناميات السلطة والاختلاف داخل المجتمع.

2- موضوع سوسيولوجيا الآخر: ينصرف موضوع هذا الحقل إلى دراسة العمليات الاجتماعية التي تُنتج الآخر وتحدد موقعه ضمن النظام الاجتماعي. ويتجلى ذلك في تحليل آليات الوصم الاجتماعي بوصفها وسيلة لتمييز “المختلف” وإقصائه، وفي تفكيك البنى الرمزية والطبقية التي وصفها بورديو بوصفها أنظمة تحدد الذوق والشرعية والمعنى. كما يتناول الحقل التمثلات الثقافية والسياسية التي تحدد صورة الآخر في الخطاب العام، كما أوضح إدوارد سعيد في دراسته النقدية للاستشراق، حيث يصبح الشرق - بوصفه “الآخر” - بناءً معرفياً يخدم علاقات الهيمنة والاستعمار.

بهذا المعنى، يتضمن موضوع سوسيولوجيا الآخر عدة مستويات: (من التفاعل اليومي إلى المؤسسات الكبرى، ومن الخطاب إلى الممارسة، ومن المحلي إلى العالمي). وتتكامل هذه المستويات في هدف أساسي هو الكشف عن أنماط إنتاج الاختلاف والتمييز، وتحليل نتائجها في إعادة توزيع السلطة والمكانة داخل المجتمع.

3- أهمية سوسيولوجيا الآخر: تتجلى أهمية هذا الحقل في كونه يمكن الباحث من فهم آليات تشكل الهويات، ومصادر التمييز، والعنف الرمزي، والإقصاء الاجتماعي. فهو يتيح دراسة نقدية للعلاقات الاجتماعية تكشف عن كيفية تداخل البنى الاقتصادية والسياسية والثقافية في إنتاج “الآخر” وتثبيت موقعه في الهامش.

ومن الناحية العملية، تبرز أهميته في إسهامه في إعادة بناء سياسات الإدماج والمواطنة؛ إذ يساعد في صياغة رؤى جديدة للتربية والإعلام والسياسة العامة تقوم على الاعتراف المتبادل بدل الهيمنة أو التمثيل الأحادي. كما أن تحليل ديناميات الآخريّة يوفر أدوات لتفكيك الصور النمطية التي تغذي النزاعات الإثنية والدينية والطبقية، بما يفتح المجال أمام مجتمعات أكثر عدلاً وتسامحاً وتنوعاً ثقافياً.

خلاصة القول، لا تقف سوسيولوجيا الآخر عند حدود دراسة العلاقات بين الذات والمجتمع، بل تمثل مشروعاً نقدياً لفهم البنية العميقة للعلاقات الإنسانية، تلك التي تُنتج فيها القوة والمعرفة صوراً للآخر تستخدم لتبرير التراتب الاجتماعي والثقافي. ومن ثم، فإنها تمثل جسراً بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية، وبين الوعي الذاتي والممارسة السياسية، بما يجعلها من أهم الحقول التي يمكن أن تسهم في بناء وعي إنساني نقدي يُعيد التفكير في معنى الانتماء والمواطنة والاختلاف في العالم المعاصر.

ثالثاً- آليات بناء صورة الآخر:

تعد عملية بناء صورة “الآخر” من أكثر الظواهر الاجتماعية تركيياً وتشابكاً، إذ تتداخل فيها البنى الرمزية والمؤسسية التي تشكل وعي الأفراد والجماعات بأنفسهم وبمن يختلف عنهم. فالآخر ليس معطى طبيعياً، بل هو نتاج عملية اجتماعية وثقافية طويلة المدى، تتفاعل فيها منظومات القيم، والخطابات المهيمنة، وآليات التنشئة التي تنقل الصور النمطية وتعيد إنتاجها عبر الأجيال. ومن ثم، فإن فهم صورة الآخر لا يتم بمعزل عن تحليل السياقات التي تنتجها، سواء كانت تربوية أو إعلامية أو دينية أو ثقافية.

ويمكننا تعريف آليات بناء صورة الآخر بأنها الوسائل والعمليات التي تساهم في تكوين تصورات الأفراد والمجتمعات حول من يعتبر مختلفاً أو خارجاً عن المعايير الاجتماعية والثقافية السائدة. هذه الآليات تعمل على إنتاج صورة الآخر من خلال ثلاثة أبعاد رئيسية: التنشئة الاجتماعية، الخطاب الإعلامي والسياسي، والدين والثقافة، وكلها تساهم في تشكيل وعي الأفراد والجماعات بطريقة منظمة أو ضمنية.

1- التنشئة الاجتماعية وبناء التصورات الأولية: تبدأ صورة الآخر بالتكون منذ المراحل الأولى من حياة

الفرد، في إطار مؤسسات التنشئة الاجتماعية كالأسرة والمدرسة. فالطفل يتشرب عبر هذه القنوات الأولى منظومة القيم والمعايير التي تحدد ما هو “نحن” وما هو “هم”. يوضح بورديو أن التنشئة الاجتماعية تؤدي إلى بناء “هابيتوس” جماعي *Habitus* يوجه الإدراك والتمييز بين الفئات، حيث تغرس في الفرد أنماط الاستقبال الاجتماعي للمختلف.

بمعنى أوسع، في بداية الحياة الاجتماعية للفرد، تنشئ الأسرة شبكة رمزية وثقافية تحدد من ينتمي إلى “الداخل” ومن يقع ضمن “الآخر”. وفي هذا الإطار، يؤكد لنا بورديو أن الذوق ليس محايداً أو تلقائياً، بل إنه اختيار يتم في مواجهة ما لا نريد أن نكون، هنا يكشف كيف أن الاختيارات الثقافية تحمل مضامين تمييزية، وتتشكل على أساس تموضع اجتماعي مسبق. ومن ثم، حين تنشأ الأسرة ضمن موقع اجتماعي معين، فإنها تعلم أطفالها أنماطاً من التمييز الرمزي: كيف ننظر إلى الطعام، الفن، الكتب، وحتى الترفيه، باعتبارها دلائل هوية هذا من جهة. ومن جهة أخرى نجد أن المدرسة كمؤسسة تربية - تلك التي يفترض أن تنشئ مواطنين متساوين - غالباً ما تعيد إنتاج نفس التمايزات الثقافية من خلال المناهج الدراسية، التمثيلات التاريخية، اللغة المستخدمة في التعليم، كل ذلك يسهم في ترسيخ مقولات من “نحن” ومن “هم”. فحين يصور التعليم المدرسي جماعة معينة كمهملة أو متخلفة أو غير متحضرة، فإن ذلك يغذي الشعور بالآخرية لديهم. ثم تأتي العلاقات بين الأقران والمؤسسات المحلية التي تكمل هذا البناء فيما يسميه جوفمان بآليات “إدارة الهوية الملوثة” التي يمارسها الفرد داخل محيط اجتماعي مترابط. بذلك، نجد أن التنشئة الاجتماعية ليست عملية سلبية فقط، بل صيرورة إنتاج للجاهزية الذهنية لقبول الآخر أو رفضه، مع ما ينجم عن ذلك من ممارسات العزل أو الإقصاء.

2- الخطاب الإعلامي والسياسي كآلية لإنتاج الصور النمطية للآخر: يؤدي الإعلام والسياسة دوراً حاسماً

في إعادة إنتاج صورة الآخر على نطاق أوسع. فوسائل الإعلام لا تنقل الواقع فقط، بل تعيد تشكيله عبر اختيار ما تظهره وكيف تقدمه. يشير تيون دايك إلى أن الخطاب الإعلامي الغربي كثيراً ما يعرض الأقليات والمهاجرين في سياق سلبي يربطهم بالجريمة أو التهديد. هذه الطريقة في التمثيل تؤدي إلى خلق “آخر” جمعي يبدو غريباً أو خطيراً. وبالطريقة نفسها، تستعمل الخطابات السياسية مفاهيم مثل “الأمن القومي” أو “الهوية الوطنية” لتبرير الإقصاء أو التشكيك في انتماء مجموعات معينة.

ويبين إدوارد سعيد أن هذا النمط من الخطاب ليس جديداً، بل هو امتداد لتاريخ طويل من تصوير الشرق كفضاء مختلف ومتخلف مقابل “الغرب المتحضر”. وبالتالي، يصبح الآخر بناءً ثقافياً يخدم مواقف القوة والهيمنة أكثر مما يعكس حقيقة موضوعية.

أما **الخطاب السياسي**، فغالباً ما يستثمر هذه الصور في تبرير السياسات الإقصائية أو النزعات القومية، حيث يقدم الآخر بوصفه خطراً وجودياً أو ثقافياً يهدد هوية الجماعة. وهكذا يتحول “الاختلاف” من حقيقة إنسانية إلى حد فاصل يعرف الذات عبر نفي الآخر.

3- الدين والثقافة بين التسامح والإقصاء: يمكن للدين والثقافة أن يكونا مصدرين للتسامح أو وسيلتين لإعادة إنتاج التمييز؛ بمعنى أن يشكل الدين والثقافة معاً مجالين حاسمين في إعادة إنتاج أو تفكيك صورة الآخر. فمن ناحية، يمكن أن يقدم رؤية أخلاقية شاملة تقوم على مبدأ الكرامة الإنسانية كما لدى **إيمانويل ليفيناس** الذي يرى أن اللقاء بالآخر هو أساس الأخلاق ذاتها، لأن الآخر يدعونا إلى المسؤولية والاعتراف.

ومن ناحية أخرى، يمكن للدين والثقافة أن يتحوّلا إلى أدوات ترسيخ لثنائية (**نحن - هم**) عبر قراءة ضيقة للنصوص أو عبر رموز ثقافية تركز التفوق الجمعي، ومن خلال هذه التأويلات الدينية والثقافية يتغذى الشعور بالتفوق والانغلاق، فينقسم العالم الاجتماعي إلى “نحن” و “هم”. ومع ذلك، يمكن لتأويلات أخرى أن تفتح المجال للاعتراف المتبادل.

وهكذا تمارس الثقافة دور “**المرآة المشوهة**” التي تعكس الذات من خلال اختلاف الآخر، فتجعل الاختلاف مصدراً للتهديد بدل أن يكون فضاءً للتكامل.

خلاصة القول، يظهر تحليل آليات بناء صورة الآخر أنها ليست مجرد عمليات إدراكية أو تمثيلية، بل هي نتاج شبكات معرفية وسلطوية تشكّل الوعي الجمعي ضمن ما يسميه فوكو “**نظام الخطاب**”. فكل معرفة بالآخر تنطوي على سلطة كامنة، إذ تحدد من يملك حق التعريف والتصوير والتمثيل. ومن هنا تبرز الحاجة إلى مقارنة إبستمولوجية نقدية تعيد مساءلة أسس إنتاج هذه الصور، وتفكك البنى اللغوية والرمزية التي تحكمها، سعياً نحو بناء علم اجتماع إنساني يعيد الاعتبار للتعدد والاختلاف بوصفهما مجالي إثراء لا تهديد.

رابعاً- جدلية الهوية والاختلاف وعلاقتها بالآخر:

تعد جدلية الهوية والاختلاف من أكثر المفاهيم إشكالاً في **الفكر الفلسفي والسوسيولوجي المعاصر**؛ إذ تتقاطع فيها أسئلة الذات والمعنى والاعتراف والآخر، لتشكل بنية معرفية متشابكة تربط بين الوجود الاجتماعي والتاريخي للإنسان وبين علاقاته الرمزية والقيمية بالآخرين. فالهوية ليست معطى ثابتاً، بل عملية **تشكل تاريخي**- **تواصلية** تتأسس عبر شبكة العلاقات الاجتماعية والثقافية التي يواجه فيها الفرد ذاته في مرآة الآخر. هذه الجدلية لا تفهم في بعدها الأنطولوجي فحسب، بل في بعدها التواصلية الذي يجعل الاعتراف بالآخر شرطاً لإمكان الذات نفسها.

بناء على ما سبق، سنحاول مناقشة ما يلي:

1- الهوية بوصفها علاقة بالآخر: منذ الجدلية الهيكلية بين السيد والعبد، تبلور الوعي بأن الهوية لا تُعرف إلا عبر الاختلاف، وأن الذات لا تعي نفسها إلا من خلال صراع الاعتراف بالآخر. غير أن التحول السوسيولوجي في القرن العشرين، ولا سيما مع جورج هيربرت ميد، جعل الهوية تنشأ من التفاعل الرمزي، فالذات تتكون من خلال استبطان تصورات الآخرين عنها في عملية تواصل اجتماعي مستمرة.

لكن هابرماس طوّر هذا التصور من منظور أكثر تركيبياً حين رأى أن الهوية لا تكتمل إلا داخل فعل تواصل عقلاني يسعى نحو التفاهم لا الهيمنة، وأن الاعتراف المتبادل هو الشرط الأخلاقي والمعياري الذي يتيح للذات أن تبني وعيها بذاتها ضمن فضاء اجتماعي منفتح. بذلك تصبح الهوية عند هابرماس مشروعاً تواصلياً يتجاوز الانغلاق الثقافي، حيث يعاد بناء الذات عبر حوار العقل العمومي الذي يمنح الأفراد إمكان الاندماج دون محو اختلافهم.

2- الاعتراف بوصفه أساس العدالة والهوية: يعد مفهوم الاعتراف عند هونيث امتداداً نقدياً لمشروع هابرماس؛ إذ يرى أن العلاقات الاجتماعية العادلة تقوم على ثلاثة أنماط من الاعتراف: الحب، والحق، والتقدير الاجتماعي. ومن خلال هذه المستويات، تبنى الهوية الأخلاقية للفرد، ويعاد إنتاج النظام الاجتماعي بطريقة تنصف المختلفين وتدمجهم ضمن نسق قيمى جامع.

إن إنكار الاعتراف، كما يؤكد هونيث، يؤدي إلى ما يسميه “الازدراء الاجتماعي” الذي يولد الإقصاء والتهميش وفقدان الكرامة، في حين أن الاعتراف المتبادل يتيح تحقيق الذات عبر علاقة تفاعلية تعيد للفرد إنسانيته وتثبت هويته في المجال العمومي. وفي هذا الإطار، يصبح الاختلاف ليس نقيضاً للهوية، بل شرطاً لوجودها؛ لأن الاعتراف بالآخر المختلف هو ما يمنح الذات إمكانية الوجود الأخلاقي والاجتماعي.

3- نحو سوسيولوجيا للاختلاف والتنوع: من منظور سوسيولوجي نقدي، يظهر تحليل الخطابات المعاصرة أن المجتمعات الحديثة تواجه أزمة هوية ناجمة عن التوتر بين التوحيد الثقافي والعولمة من جهة، والتعدد والاختلاف من جهة أخرى. غير أن الاعتراف، بوصفه ممارسة اجتماعية، يمكن أن يعيد التوازن بين هذين القطبين عبر بناء فضاء مشترك يتأسس على العدالة التواصلية والمساواة الرمزية.

وبهذا، يصبح مفهوم الاختلاف محركاً لتجديد النسق الاجتماعي لا تهديداً له، فالمجتمع الذي يضمن اعترافاً متبادلاً هو المجتمع الذي يتيح لأفراده إمكان التميز دون الوقوع في التهميش. هذا ما يجعل الهوية مشروعاً تاريخياً - تواصلياً يتجدد مع كل علاقة إنسانية تؤسس على الفهم المتبادل لا على الإقصاء.

خلاصة القول، تبرز جدلية الهوية والاختلاف أن الوعي بالذات لا يمكن فصله عن بنية المعرفة بالآخر. فالهوية ليست كياناً مغلقاً، بل حقل ابستمولوجي مفتوح يتشكل ضمن التفاعل الاجتماعي والمعرفي المستمر.

وعلى **المستوى النقدي**، تُظهر أعمال هابرماس وهونيث أن كل محاولة لتعريف الذات بمعزل عن الآخر تنتهي إلى أزمة معرفية وأخلاقية، لأن الذات تعرف نفسها فقط عبر اعتراف الآخر بها. من هنا يمكن القول إن تجاوز الثنائيات التقليدية (**الهوية/الاختلاف، الذات/الآخر**) يقتضي بناء ابستمولوجيا الاعتراف، التي تجعل من التواصل أساساً للمعرفة ومن الاختلاف شرطاً للفهم.

إن **مستقبل الهوية**، في ضوء هذا التحليل، لا يقوم على الانغلاق أو الدفاع عن النقاء الثقافي، بل على الانخراط في حوار إنساني كوني يعيد تعريف الذات بوصفها كائناً تواصلياً يفتح على العالم من خلال الآخر لا ضده.

خامساً- سوسيولوجيا الآخر في سياق العولمة:

مع تسارع عملية العولمة وانفتاح الأسواق والاتصالات عبر الحدود، تغيرت طبيعة "الآخر" من كائن موضوع للنظر أو الإقصاء إلى جزء لا يتجزأ من نسيج المجتمعات المحلية والعالمية على حد سواء. هذه التحولات لم تكن فقط اقتصادية أو تقنية، بل أدت إلى إعادة تشكيل علاقات القوة والثقافة والهوية، مما يجعل من "سوسيولوجيا الآخر" في عصر العولمة مجالاً مركزياً لفهم كيف يعاد تعريف الذات والجماعة والآخر في فضاءات ما بعد الحدود؛ إذ ليس الأمر مجرد تدفق للبشر أو البضائع، بل إعادة تركيب للمعاني والهوية ولقوى الهيمنة والاعتراف.

بناء عليه سوف نحلل الأفكار التالية:

1- تحول الآخر إلى جزء من النسيج المحلي والعالمي: في ظل العولمة، تصبح الهجرات، تنقل رؤوس الأموال، وانتشار وسائل الإعلام، عوامل تجعل الآخر ليس بعيداً أو خارجياً فحسب، بل حاضراً داخل الحياة اليومية للمجتمعات المضيفة. فمثلاً يتجاوز الفرد في مدينة عالمية أن يكون "أنا - الوطن" ليصبح جزءاً من شبكة علاقات تضم مهاجرين (لاجئين) وثقافات مختلطة. هذه الظاهرة تضع "الآخر" في مركز بناء الهوية ليس كتهديد وإنما كفرصة لإعادة تعريف ما هو "نحن". المناقشات الأكاديمية تؤكد أن العولمة تفكك الحدود التقليدية للهوية الوطنية والثقافية، وتعيد تشكيلها عبر نماذج من التعددية والتداخل. وبالتوازي، يشير البعض إلى مفهوم "العولمة المحلية **glocalization**" و"الشبكات العابرة للقطر" التي تجعل الآخر قريباً داخل السياق المحلي، فتزداد الحاجة إلى إعادة بناء مفاهيم المواطنة والاختلاف.

2- إعادة تشكيل علاقات القوة بين الهويات: تعيد العولمة توزيع قوى الهوية والاختلاف، فالآخر لم يعد فقط موضوعاً للتمييز بل طرفاً في مفاوضات الاعتراف وإعادة التمثيل الثقافي. تشير الدراسات إلى أن الدول والمجتمعات التي تتعامل مع التنوع كميزة وليس كعبء تحقق مستويات أعلى من الإدماج والاستقرار. مثلاً،

في سياق الهجرة إلى المدن العالمية، تستعمل سياسات الإدماج والتعددية لإدراج الآخر ضمن النسيج الاجتماعي بدلاً من تغييره بالكامل، ما يعكس تحولاً في مفهوم “الآخر” من تهديد إلى مورد.

لكن في المقابل، تبقى هناك قوى هيمنة ثقافية واقتصادية تعيد إنتاج الآخر في موقع التبعية أو التهديد وهو ما يشير إلى استمرار “تعبير الآخر” بوصفه مرآة للذات الثقافية أو الاقتصادية. لهذا، فإن سوسيولوجيا الآخر في العولمة تتطلب تحليلاً لكل من قوة الدمج وقوة الإقصاء، مع النظر إلى كيف تستخدم الهجرة، اللاجئين، والتعددية الثقافية كفضاءات لصراع الهوية أو لإعادة إنتاجها.

3- الاعتراف المتبادل كبديل عن منطق الصراع والإقصاء: في هذا السياق، يبرز مفهوم “الاعتراف المتبادل” بوصفه أفقاً ممكناً لإدارة الآخر في زمن العولمة. إذ بدلاً من أن يُنظر إلى الآخر كتهديد أو عبء، يصبح شريكاً في بناء الهوية والثقافة والمواطنة. تشير بعض الدراسات إلى أن النماذج التي تعتمد سياسات الاعتراف (وليس فقط التوزيع) تحقق اندماجاً أفضل وتنوعاً أكثر استقراراً.

فالتعددية الثقافية، كما تُناقش في الأدبيات، لا تعني مجرد التعايش، بل التواصل عبر الثقافات، حيث يتم الاعتراف بالتنوع والاختلاف بوصفهما جزءاً من الهوية المشتركة. وهكذا يصبح الآخر ليس لا موضوعياً أو هامشياً، بل جوهرياً في بناء الذات والجماعة في سياق عالمي. ومع ذلك، يتطلب هذا الاعتراف شروطاً من ضمنها تمثيل متساوٍ، حقوق مدنية، واحترام التعدد الثقافي كمكون إيجابي لا كتهديد.

خلاصة القول، إن تحليل سوسيولوجيا الآخر في سياق العولمة يكشف أن الآخر قد يكون بين خيارين: أن يدمج كجزء من النسيج الاجتماعي أو يحافظ على موقعه كمنحرف أو مهدد. ومن منظور إبستمولوجي، ينبغي ملاحظة أن المعرفة بهذا الآخر لا يمكن أن تكون محايدة أو خارج علاقات القوة. فإما أن تنتج المعرفة عن الآخر ضمن منطق الهيمنة، وإما في منطق الاعتراف والتفاعل.

لكن التحدي الحقيقي هو أن مفهوم الاعتراف المتبادل نفسه لم ينشأ أصلاً في سياق عالمي بالكامل، فهو غالباً مرتبط بالدولة القومية أو الجماعات داخلها. لذلك، فإن تطبيقه على مستوى ما بعد القطري ليس أمراً تلقائياً، بل يتطلب إعادة بناء أطر المواطنة، العدالة، والحقوق بما يتجاوز الحدود الوطنية التقليدية. كما أن الانخراط في العولمة لا يلغي الفوارق والتمييزات فقد يستبدل الآخر التقليدي بآخر رقمي أو اقتصادي أو ثقافي بمعنى جديد. وهكذا تظل المعرفة التي ننتجها عن الآخر ضمن العولمة معرضة للنقد، فلا بد من تطبيق منهجية انعكاسية يدرك من خلالها الباحث أنه ليس خارج التأثيرات الثقافية أو الاقتصادية التي يدرسها.

في النهاية، يمكن القول إنه لكي تصبح سوسيولوجيا الآخر فعالة في زمن العولمة، فإنها تحتاج أن تحول الآخر من موقع الاستهلاك أو التمثيل إلى موقع الشراكة والاعتراف، وتعيد تعريف الهوية والمواطنة في فضاء مفتوح التأثير متعدد المستويات (المحلي، الإقليمي، والعالمي).

- الخاتمة:

يمكننا القول إن دراسة الآخر، سواء من المنظور الفلسفي أو السوسيولوجي، تكشف عن عمق الجدلية بين الذات والآخر، بين الهوية والاختلاف، وبين الاعتراف والإقصاء. لقد بدا لنا جلياً منذ مناقشة الجذور النظرية أن الفلاسفة من هيجل إلى سارتر وصولاً إلى ليفيناس، اعتبروا الآخر عنصراً مركزياً في تكوين الذات: ففي هيجل يظهر الآخر في صراع الاعتراف، بينما يرى سارتر أنه مرآة تكشف الذات لنفسها، ويضع ليفيناس الآخر أساساً للأخلاق وشرطاً لإنسانية الإنسان. هذه الخلفية الفلسفية وفرت الأساس لمفهوم الآخر ككائن مرتبط بالوعي والذاتية، وليس مجرد كائن خارجي.

وعلى صعيد السوسيولوجيا، تم تحويل مفهوم الآخر من بعده الفلسفي إلى موضوع دراسي مرتبط بالسلطة والتميز والهوية والتمثيلات الثقافية. أظهرت مساهمات جوفمان في الوصم الاجتماعي، وبوردو في التمييز ورأسمال الثقافي، وإدوارد سعيد في تحليل خطاب الشرق، أن الآخر ليس مجرد فئة معرفية بل يتأثر بالعلاقات الاجتماعية والثقافية، ويعاد إنتاجه عبر الخطاب والسياسات الاجتماعية.

ثم تناولنا آليات بناء صورة الآخر، إذ تتشكل هذه الصورة منذ الطفولة عبر التنشئة الاجتماعية في الأسرة والمدرسة والإعلام، كما تتأثر بالخطاب السياسي والديني والثقافي. وقد أظهر التحليل أن هذه الآليات ليست محايدة، بل تعمل ضمن منظومات قوة يمكن أن تعزز الاعتراف أو الإقصاء، وأن الصورة النمطية للآخر هي نتيجة تراكم اجتماعي وثقافي مركب.

وفي جدلية الهوية والاختلاف، يتضح أن الهوية لا يمكن أن تفهم بمعزل عن الآخر، فالاختلاف ليس تهديداً بل شرطاً للتنوع الاجتماعي. ومن منظور التفاعل الرمزي، تمنح العلاقات مع الآخر المعنى للذات، بينما تؤكد نظرية الاعتراف عند هابرماس وهونيث أن الاعتراف المتبادل هو الأساس الأخلاقي والاجتماعي الذي يمكن الفرد من تطوير هويته والانخراط في فضاء من العدالة والتفاعل الثقافي.

وأخيراً، في سوسيولوجيا الآخر في سياق العولمة، أضحت الآخر جزءاً من النسيج الاجتماعي اليومي، سواء من خلال الهجرة أو اللاجئين أو التعددية الثقافية، مما يفرض إعادة التفكير في مفاهيم الهوية الوطنية والثقافية. وتظهر أهمية الاعتراف المتبادل هنا كبديل عن منطق الإقصاء، إذ يتيح إدماج الآخر كعنصر فاعل في البناء الاجتماعي والثقافي، مع مراعاة إعادة توزيع القوة والتمثيل الرمزي والثقافي.

بناءً على ما تقدم نستنتج توصي دراسة سوسيولوجيا الآخر أن فهم الذات لا يتحقق إلا في سياق علاقاتها بالآخر، وأن الهوية والاختلاف هما عنصران متكاملان يتفاعلان ضمن فضاءات السلطة، الثقافة، والتاريخ. بذلك يعتبر منهج الاعتراف المتبادل إطاراً أساسياً لتحقيق العدالة الاجتماعية وبناء التنوع، بينما يظل التمثيل الإعلامي والسياسي والثقافي وسيلة لإعادة إنتاج الإقصاء أو الاعتراف. وفي زمن العولمة، تصبح سوسيولوجيا الآخر

أداة لفهم كيفية إدماج الاختلافات المتعددة ضمن نسق اجتماعي واحد، مع ضرورة إعادة النظر في هياكل الهوية الوطنية والثقافية بما يسمح بالتعددية والاندماج الحقيقي.

بهذه الرؤية، تقدم سوسولوجيا الآخر إطاراً تحليلياً شاملاً يجمع بين الفلسفة، السوسولوجيا، والسياسة الثقافية، ويكشف عن أهمية إعادة تعريف العلاقة بين الذات والآخر، بين الاعتراف والإقصاء، وبين الهوية والاختلاف في عالم مترابط ومتعدد.

- المراجع المعتمدة:

1. هيجل. (2006). فنومينولوجيا الروح. ط1. (ترجمة وتقديم، ناجي العونلي). بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
2. بورديو، بيير. (2024). التميز: نقد اجتماعي للحكم. ط1. (ترجمة، نصير مروة). بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
3. سعيد، إدوارد. (2024). الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق. ط3. (ترجمة، محمد عناني). المملكة المتحدة: مؤسسة هنداي.
4. هابرماس، يورغن. (2020). نظرية الفعل التواصلي: عقلانية الفعل والعقلنة الاجتماعية. ط1. المجلد الأول (ترجمة، فتحي المسكيني). الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
5. هابرماس، يورغن. (2020). نظرية الفعل التواصلي: في نقد العقل الوظيفي. ط1. المجلد الثاني (ترجمة، فتحي المسكيني). الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
6. هونيث، أكسل. (2015). الصراع من أجل الاعتراف (القواعد الأخلاقية للمآزم الاجتماعية). ط1. (تعريب، جورج كتورة). بيروت: المكتبة الشرقية.
7. بومير، كمال. (2010). النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث. ط1. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون وآخرون.
8. الزواوي بغوره، محمد. (2012). الاعتراف (من أجل مفهوم جديد للعدل): دراسة في الفلسفة الاجتماعية. ط1. (تقديم، فهمي جدعان). بيروت: دار الطليعة.
9. مصطفى، مهند. (2016). سياسة الاعتراف والحرية: سجل وإطار نظري تحت طائلة الراهن العربي. مجلة تبين. 5(17). بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
10. فياض، حسام الدين. (2022). مقالات نقدية في علم الاجتماع المعاصر (النقد أعلى درجات المعرفة). ط1. سلسلة نحو علم اجتماع تنويري، الكتاب الثالث. أنقرة: دار الأكاديمية الحديثة.
11. فوكو، ميشيل. (1994). المعرفة والسلطة. ط1. (ترجمة، عبد العزيز العيادي). بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
12. ماتلار، أرمان. (2008). التنوع الثقافي والعمولة. ط1. (ترجمة، خليل أحمد خليل). بيروت: دار الفارابي ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم.
13. ساسن، ساسكيا. (2014). علم اجتماع العمولة. ط1. العدد 2048. (ترجمة، عبد الرازق جليبي). القاهرة: المركز القومي للترجمة.
14. بورديو، بيير. (1994). العنف الرمزي: بحث في أصول علم الاجتماع التربوي. ط1. (ترجمة، نظير جاهل). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

15. بورديو، بيار. (2007). **الرمز والسلطة**. ط3. (ترجمة، عبد السلام بنعبد العالي). الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.
16. تشيرتون، ميل. براون، آن. (2012). **علم الاجتماع: النظرية والمنهج**. ط1. العدد 2075. (ترجمة، هناء الجوهري). القاهرة: المركز القومي للترجمة.
17. غوفمان، إرفنغ. (2021). **تقديم الذات في الحياة اليومية**. ط1. الرياض: دار معنى للنشر والتوزيع.
18. Hegel, Georg Wilhelm Friedrich. (1977). **The Phenomenology of Spirit**. (Translated by A. Vincent Miller). Oxford: Oxford University Press.
19. Sartre, Jean-Paul. (1992). **Being and Nothingness: An Essay on Phenomenological Ontology**. (Translated by Hazel Estella Barnes). New York: Washington Square Press.
20. Levinas, Emmanuel. (1969). **Totality and Infinity: An Essay on Exteriority**. (Translated by Alphonso Lingis). Pittsburgh, Pennsylvania: Duquesne University Press.
21. Goffman, Erving. (1963). **Stigma: Notes on the Management of Spoiled Identity**. Englewood Cliffs, New Jersey: Prentice-Hall.
22. Said, Edward Wadie. (1978). **Orientalism**. New York, New York: Pantheon Books.
23. Bergo, Bettina. (2023, Fall Edition). Emmanuel Levinas. **The Stanford Encyclopedia of Philosophy**. Retrieved from <https://plato.stanford.edu/archives/fall2023/entries/levinas/>
24. Reynolds, Jack. (2022, Winter Edition). **Jean-Paul Sartre**. The Stanford Encyclopedia of Philosophy. Retrieved from <https://plato.stanford.edu/archives/win2022/entries/sartre/>
25. Iser, Matt. (2024, Spring Edition). **Recognition**. The Stanford Encyclopedia of Philosophy. Retrieved from <https://plato.stanford.edu/archives/spr2024/entries/recognition/>
26. van Dijk, Teun Adrianus. (1991). **Racism and the Press**. London: Routledge.
27. Fraser, Nancy. (2019). **Recognition or Redistribution? A Critical Reading of the Politics of Recognition**. New York: Verso.
28. Habermas, Jürgen. (1981). **The Theory of Communicative Action**. Boston: Beacon Press.
29. Habermas, Jürgen. (1992). **Between Facts and Norms: Contributions to a Discourse Theory of Law and Democracy**. Cambridge, Massachusetts: MIT Press.
30. Honneth, Axel. (1995). **The Struggle for Recognition: The Moral Grammar of Social Conflicts**. Cambridge: Polity Press.



Mominoun



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm

info@mominoun.com

www.mominoun.com

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

للدراسات والأبحاث

